

مجالات يسر الإسلام في الشتاء الأستاذ حمزة عبد الله سعادة شواهنة⁽¹⁾

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن من تيسير الله على عباده أن جعل لهم في دينهم كثيراً من اليسر والرخص التي تدل على سماحة هذا الدين، فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، كما أنزل كتابه العزيز؛ لتحقيق السعادة للبشرية جمعاء، ورفع الحرج عن الناس، فقد قال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)⁽²⁾.

ولما كانت الأجواء الباردة في الشتاء قد تكون داعياً للبعض إلى التساهل في العبادات، يسر الله تعالى لعباده كثيراً من الرخص؛ حتى يتمكن المكلفون من أداء عبادته فيه ببسر، ولذا كان السلف الصالح يعدّون الشتاء ربيع المؤمن؛ "لأنه يرتع فيه في ببساتين الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، وينزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه، كما ترتع البهائم في مرعى الربيع فتسمن وتصلح أجسادها، فكذلك يصلح دين المؤمن في الشتاء بما يسر الله فيه من الطاعات"⁽³⁾.

وسنخصص الحديث في هذا المقال عن يسر الإسلام في الشتاء في ضوء العناصر الآتية:

* مفهوم اليسر:

مفهوم اليسر لغة: "ضدّ العسر ومنه (الدين يسر) أي سهل سمح قليل التشديد"⁽⁴⁾. أما اليسر في الاصطلاح: فهو تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة كما جاءت في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من غير تشدّد يحرّم الحلال، ولا تمييع يحلّل الحرام. ويدخل تحت هذا المسمى السماحة والرخص والسعة والعذر والإباحة والتخفيف والسهولة ورفع الحرج وغيرها من المصطلحات التي تحمل المدلول نفسه.

* الإسلام قائم على اليسر: من خصائص الإسلام أنه دين اليسر الذي تمثل في جوانب كثيرة في مجالات الحياة، كما تمثل يسر الإسلام في جانب العقيدة والعبادات على حد سواء بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية، وهذه الخصيصة تدل على صلاحية هذا الدين لكلّ العصور والأزمان، وقد أشار الله تعالى إلى منهج التيسير في مواطن كثيرة من كتابه العزيز، منها قوله تعالى: {وما جعل عليكم في الدين من حرج} ⁽⁵⁾، كما أشار عليه الصلاة والسلام إلى أنّ من أهم ما تميز به الإسلام عن غيره من الشرائع السابقة هو اليسر، ومن ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الدين يسر، ولن يُشادّ الدينَ أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»⁽⁶⁾.

والمتمعن في أحكام الشريعة السمحة، يلحظ أنّ التكاليف الشرعية بنيت في مجملها على منهج التيسير، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، ولكن نكتفي بتسليط الضوء على مجالات يسر الشريعة في موسم الشتاء خاصة.

* مجالات يسر الإسلام في الشتاء:

مجالات يسر الإسلام في الشتاء متعددة، وليس الغرض من هذا المقال تفصيل أحكام تلك الرخص المتعلقة في أحكام الشتاء، وإنما غرضنا هنا الإشارة إلى أكبر عدد من تلك الرخص، وهذه أبرز تلك المجالات:

¹ (باحث في الدراسات الإسلامية/ فلسطين).

² (البقرة: 185)

³ لطائف المعارف لابن رجب (ص: 326).

⁴ المعجم الوسيط، مادة: يسر، (2/ 1065).

⁵ (الحج: 78)

⁶ متفق عليه.

أولاً: مجال العبادات: الشتاء ربيع المؤمن، وإنما كان الشتاء ربيع المؤمن؛ لأنه يرتفع فيه في بساتين القربات، ومن الطاعات التي تجلى فيها يسر الشريعة في موسم الشتاء ما يأتي:

أ-الصيام: وهو الغنيمة الباردة في الشتاء؛ وذلك لأن المسلم يقدر فيه على الصيام بلا مشقة، حيث يقل فيه الجوع والتعب، فالنهار قصير وبارد.

ب-قيام الليل: تتميز ليالي الشتاء بطولها، لذا يمكن للمسلم أن يجمع فيها بين النوم والقيام بكل يسر، فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "مرحباً بالشتاء تنزل فيه البركة، ويطول فيه الليل للقيام، ويقصر فيه النهار للصيام"⁽⁷⁾.

ج-إسباغ الوضوء على المكاره: لما كان بردُ الشتاء قارساً، ووقَّع ماء الطهارة على الأبدان لاذعاً؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم رغب أُمَّته في إسباغ الوضوء واتمامه أيما ترغيب؛ إذ يُتوقع من بعض المصلين التساهل في عدم الإسباغ، لذلك رتب صلى الله عليه وسلم على إسباغ الوضوء مغفرة الذنوب.

ثانياً: مجال صلاة الفريضة: يظهر مبدأ اليسر جلياً في العبادات أكثر من غيرها من أمور الدين، حيث إنها سلوك ظاهر ومتكرر، فجميع العبادات سواء المفروضة والنافلة في الإسلام قائمة على هذا المبدأ الذي خصَّ الله تعالى به هذه الأمة من غيرها من الأمم. ويمكن أن نشير إلى بعض مظاهر التيسير في صلاة الفريضة في الشتاء في النقاط الآتية:

أ- مشروعية الجمع بين الصلاتين لعذر من الأعذار المبيحة للجمع سواء جمع تقديم أو جمع تأخير.

ب- جواز التخلف عن صلاة الجماعة؛ لشدة البرد، وقد فعل ذلك بعض الصحابة رضي الله عنهم.

ج- جواز التخلف عن صلاة الجمعة؛ لغزارة المطر، وتعذر أداء الصلاة في المسجد، ولذا يشرع قول المؤذن عند المطر أو الريح أو البرد أثناء الأذان أو بعده: "ألا صلُّوا في رحالكم"، أو "صلُّوا في بيوتكم" ونحوها.

ثالثاً: مجال الطهارة ومتعلقاتها: يظهر مبدأ اليسر في الطهارة واضحاً؛ لأنها المدخل إلى العبادات، واليسر فيها أمر ضروري، لأنها فعلها يتكرر من المكلف كثيراً.

وتتبين مظاهر اليسر في الطهارة في فصل الشتاء من خلال الأمور الآتية:

أ- جواز المسح على الخفين والجوربين والنعلين.

ب- العفو عن الطين والوحل في الشوارع: إذ يكثر في فصل الشتاء الوحل والطين، فيُغفى منه عما أصاب الثياب أو البدن، ولا يجب غسله، بل هو طاهر إذا لم تُتبيَّن نجاسته؛ لأن الأصل في الأشياء الطهارة.

ج- جواز تسخين الماء للوضوء في الشتاء: بعض الناس يتخرج من تسخين الماء للوضوء في الشتاء؛ ظاناً أن الوضوء في الماء البارد أكثر أجراً، وهذا الكلام غير صحيح، ولم يرد أي دليل شرعي في عدم جواز تسخين الماء للوضوء؛ فإن الله تعالى يقول: {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم} (8).

د- جواز تنشيف الأعضاء بعد الوضوء في الشتاء؛ لأن الأصل في هذا الفعل الإباحة، كما لم يثبت دليل على المنع منه.

ه- جواز التيمم عند عدم وجود الماء أو تعذر استعماله: يشرع التيمم للصلاة من الحدث الأصغر والأكبر لمن عجز عن استخدام الماء؛ لشدة البرد، وقد قال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (9).

⁷ لطائف المعارف لابن رجب (ص: 327).

⁸ (النساء: 147)

⁹ (النساء: 29)

رابعاً: مجال النعم: لَمَا كَانَ الْمُسْلِمُ يَشْعُرُ فِي مَوْسَمِ الشِّتَاءِ بِالْبُرْدِ، فَقَدْ اَمْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِالنَّعْمِ، مِمَّا يَخْفَفُ عَنْهُمْ وَطَأَةَ الْبُرْدِ، وَمِنْ هَذِهِ النَّعْمِ مَا يَأْتِي:

أ- أصواف بهيمة الأنعام وأوبارها وأشعارها مما فيه دفاء ووقاية، قال تعالى: {وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} (10)، وقال تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (11).

ب- الألبسة التي تقيهم البرد، قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} (12).

خامساً: مجال دفع الضرر: يكثر في ليالي الشتاء الباردة استخدام التدفئة بالوسائل القديمة أو الحديثة، ولخشية الاحتراق أو الاختناق أمر صلى الله عليه وسلم بإطفاء النار عند النوم، فقال: (لَا تَنْرُقُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ) (13)، ويظهر من هذا التوجيه النبوي شفقة النبي صلى الله عليه وسلم ورحمته بأمته، فكان كما وصفه ربه (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ) (14)، كما يتجلى فيه حرص الشريعة على حفظ النفس مما يضرها.

يتبين مما سبق أنّ مبدأ اليسر ثابت ومقرر في هذا الدين، وهو مقصد عظيم من مقاصد الشريعة السمحة، كما تبين أنّ يسر الإسلام في الشتاء جزء من منهج اليسر في دين الإسلام بعمومه، كما اتضح أنّ يسر الإسلام في الشتاء شمل مجالات عدة، حيث شملت مجالات تيسير الشريعة السمحة في الشتاء عبادات عظيمة كالصيام والقيام، كما تجلّت مجالات التيسير فيها صلاة الفريضة من جمع وتخفّف عن الجماعات في المساجد، وتجلّت مجالات التيسير كذلك في الطهارة ومتعلقاتها، من إباحة للمسح والتيمم، وإباحة لتسخين الماء وتنشيف الأعضاء وغير ذلك، وعليه ينبغي على المسلم أن يستثمر فصل الشتاء فيما يقرّبه من ربه تعالى، كما أنّ عليه أن يتفقه في العلم الشرعي؛ حتى يترخص برُخص الله تعالى في موسم الشتاء؛ ليؤدي عبادة ربه بيسر دون عناء.

والله عز وجل نسال أن يفقهنا في ديننا، إنه سميع الدعاء.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

¹⁰ (النحل: 80)

¹¹ (النحل: 5)

¹² (النحل: 81)

¹³ متفق عليه.

¹⁴ [التوبة: 128]